﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجّ: 48]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا كان الله تعالى قد أمهل قريشًا حتَّى استعجلت بالعذاب؛ ذَكَرَ هذه الآيةَ تنبيهًا على أنَّ السّابقين أُمهلوا ثُمَّ أُهلكوا، وأنَّ قريشًا - وإن أملى تعالى لهم وأمهلهم - فإنَّه لا بُدَّ من عذابهم فلا يفرحوا بتأخير العذاب عنهم(1)؛ ففي الآية السّابقة استعجلوا العذاب وتَحَدّوا النَّبي ﷺ أن يأتيهم به قريبًا بعد أن ذَكَرَ لهم الله القُرى الّتي أُهلِكت وهي ظالمة، وفي هذه الآية ضَرَبَ لهم الأمثال بمَنْ أملى لهم وأمهلهم من القُرى، وأنَّ ذلك الإمهال قد غرَّهم أو اغتروا به ولم يُفلتوا؛ فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾(2)؛ ففي هذه الآية معنى الجواب عليهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَمْلَيْتُ﴾: (ملي) كلمةٌ واحدةٌ، هي الزَّمَنُ الطَّويلُ، وأقامَ مَليًّا؛ أيْ: دهرًا طويلًا، وتملَّيتُ الشَّيءَ؛ إذا أقامَ معكَ زمانًا طويلًا(3)، ومنه قيل للمُدَّةِ الطَّويلة مَلاوَةٌ من الدَّهر، ومَليٌّ من الدَّهر(4)، والإملاءُ إفْعالٌ وهو الإمهالُ، وهمزةُ هذا المصدرِ مُنقلبةٌ عن واوٍ، مُشتقٌّ من المِلاوَةِ مُثَلَّثَةِ الميم، وهي مُدَّةُ الحياةِ، يُقالُ: أملاهُ وملّاهُ إذا أمهلهُ وأخَّرهُ، كلاهُما بالألِفِ دون همزٍ؛ فهو قَريبٌ مِنْ معنى عَمَّرَهُ؛ ولذلكَ يُقالُ في الدُّعاءِ بالحياةِ ملّاكَ اللهُ(5)؛ والمقصود بالإملاء في الآية: الإمداد في الزَّمن والتَّأخير في العقوبة.

2) ﴿أَخَذْتُهَا﴾: (أخذ) أصْلٌ واحِدٌ تتفرَّعُ مِنهُ فروعٌ مُتقاربةٌ في المعنَى، فالأصل: حَوْزُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 523.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 5001.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ملي).
(4) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (ملا).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 191.

الشَّيْءِ وجَبْيُهُ وجَمْعُهُ، وهوَ خِلافُ العَطاءِ، وهو التَّناوُلُ[1]، فالأخْذُ تَناوُلُ الشَّيءِ باليَدِ، واستُعمِلَ مجازًا مَشهورًا في الاستيلاءِ؛ قالَ تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ [التَّوْبَة: 5]، وفي القَهْرِ نحو: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِأَلْبَأْسَآءِ﴾ [الأنعام: 42]، وفي التَّلقّي مثلُ: ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: 81] وفي الاحتِواءِ والإحاطَةِ، يُقالُ: أخَذَتْهُ الحُمَّى وأخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ، وفي الإهلاكِ، نحو: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾ [الحاقة: 10][2]، والمُرادُ بالأخذِ في الآية: الإهلاكُ والقَهر والتَّدمير السَّريع.

3) ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: (صير) أصْلٌ صَحيحٌ، وهو المآلُ والمَرْجِعُ، من ذلكَ: صارَ يَصيرُ صَيْرًا وصَيْرورَةً، والصّيرُ كالحَظائِرِ يُتَّخَذُ للبَقَرِ، والواحِدَةُ صيرَةٌ، وسُمّيَتْ بذَلِكَ لِأنَّها تَصيرُ إلَيْهِ[3]، وصَيرُ الأمْرِ مُنْتهاهُ وما صيرَ إليه، وأنا على صيرٍ مِنْ أمْرِ كذا؛ أيْ: على ناحيةٍ منه، وصَيّورُ الشَّيءِ آخِرُه ومُنْتهاهُ[4]، والمَصير: المَوْضِعُ الَّذي تَصير إليه المياهُ[5]، والمُراد بالمَصيرِ في الآية: الرُّجوعُ والانتهاءُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إمهالُ اللهِ تعالى الظّالمين يعقبُه العذابُ الأليم

هذه الآية الكريمة مؤكِّدة لِما جاءَ في الآية التي قبلها من أنَّه تعالى لا يُخلف وعيده لمَن أصرَّ على كُفره، وأنَّه إن أمهلهم ليتوبوا؛ فلن يُهملهم إن أصرّوا، إذ قال تعالى: وكَثيرٌ مِن القُرى أمهَلْتُ أهلَها، ولم أُعاجِلْهم بالعُقوبةِمع ظُلمِهم بالشِّركِ والعِصيانِ، ثُمَّ عاقَبْتُهم في الدُّنيا، ومَرجِعُهم في الآخرةِ إليَّ فأُعَذِّبُهم فيها أيضًا؛ فلْيَحذَرْ هؤلاء الظّالِمونَ من ذلك، ولا يَغتَرّوا بإمهالِ اللهِ لهم[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أخذ).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 271.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (صير).
(4) ابن سِيدَه، المُخكم، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صير).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (صير).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 599، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 78، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 541، ومجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 6/ 1233.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة وصل هذه الآية بما قبلها:

بـيـانٌ شـامـلٌ لتحقيقِ الـرَّدِّ على المُستعجلين بالعذاب

عُطف قولُه تعالى ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ على جُملة ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ أو على جملة ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ باعتبار ما تضمَّنه استعجالُهم بالعذاب من التَّعريض بأنَّهم آيسونَ منه لتأخُّر وقوعه، فذُكِّروا بأنَّ أُمَمًا كثيرةً أُمهِلت ثُمَّ حلَّ بها العذاب[1]، والجملة عطفٌ على ما تقدَّمها جيء بها لتحقيق الرَّدِّ[2].

إنَّ لـلـه ﷻ حِـسـابًـا قـائـمًـا عـلـى حـكـمـةٍ بالغةٍ

هذا العطف أيضًا بيانٌ شارح لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾؛ والمعنى أنَّ هؤلاء المشركين إن كانوا يستعجلون العذاب، ويشكّون في وُقوعه حين أبطأ عليهم ولم يقع بهم؛ فما ذلك إلّا لأنَّ لهم حسابًا قائمًا على حكمةٍ، وأنَّهم إذا كانوا قد أُمْلِيَ لهم ولم يُؤخَذوا بظلمهم إلى يومهم هذا الذي هم فيه؛ فليس هذا لأنَّهم مُمتنِعون عن الله بقوَّة أو جاهٍ أو سلطانٍ، وإنَّما لأنَّ ذلك هو حُكم الله في عباده، وسُنّتُه في الظّالمين منهم لا يُعجِّل لهم العذاب ولا يُبادرهم به؛ بل يُمهلهم ويُملي لهم، حتَّى يراجعوا أنفسهم ويتدبَّروا أمرهم، وهذا من رحمة الله بهم وفضله عليهم كما يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النّحل: 61][3]، وعلى هذا؛ فهذه الآيةُ من تمام ما قبلها؛ لأنها ردٌّ تابعٌ للرّدود السّابقة على ما تضمَّنه قولهم: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾.

دلالة العطف بالواو هنا دون الفاء:

السّياقُ بصيرةُ المُتدبِّر

عُطفت هذه الجملة الكريمة بالواو دون الفاء الواردة في قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 292.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 163.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 9/ 1056.

وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ [الحجّ: 45]، والسَّبب في ذلك من وجوهٍ؛

أوَّلُها: أنَّ قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن﴾ تَقَدُّمها جملة معطوفة بالفاء، وهي قوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ [الحجّ: 44]، فوقعت بدلاً عن قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ [الحج: 44]، وهذه تقدَّمتها جملة معطوفة بالواو، فحُكْمها حُكمُ ما تقدّمها من الجملتيْن المعطوفتيْن بالواو، فالعِلَّة هي المُشاكلة في كلٍّ مِنهما.

والثّاني: عُطِفت الأولى بالفاء المُقتضية للتَّرتيب؛ لأنَّ الجُمَلَ السّابقة عليها لا يمكن وقوعها بعدها بوجه إذ هي إخبار عن الأمم السّالفة، وعُطفت هذه بالواو؛ لأنَّ الجُمل التي قبلها يمكن تقديمُها عليها وتأخيرُها؛ لأنَّ استعجالهم العذاب يمكن الإخبارُ عنه قبل الإخبار عن الإملاء، يكون في القرى وبعده، فيُناسب الإتيان بالواو المُقتضية للجمع، ولا تقتضي التَّرتيب.

والثّالث أنَّ الآية الأولى عُطفت بالفاء المُقتضية للسَّبب؛ لأنَّ إهلاك أهل القرى بسبب إهلاك القُرى[1].

توجيه المُتشابه اللَّفظي بين الآيتيْن 45 و48:

مُناسبة ذِكْر الإهلاك بعد ذِكْر الهالكين وذِكْر الإملاء لمَنْ لم يهلك بعد

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ نظير قوله آنِفًا: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحجّ: 45] الآية، إلّا أنَّ الأولى قُصِد منها كثرةُ الأُمَم التي أُهلِكَتْ؛ لئلّا يُتوهَّمَ من ذِكرِ قَومِ نوحٍ ومَن عُطِف عليهم أنَّ الهلاكَ لمْ يَتجاوَزْهم؛ ولذلك اقتُصِر فيها على ذِكرِ الإهلاكِ دون الإمهالِ[2]، حيث ذكَرَ فيها القُرى الَّتي أهْلَكَها دونَ إملاءٍ وتأخيرٍ، بل أُعقِبَ الإهلاكُ التَّذكيرَ، وهذه الآيةُ لمّا كان تعالى قد أمهَلَ قُريشًا حتَّى استعجَلَتْ بالعذابِ، جاءت بالإهلاكِ بعْدَ الإملاءِ؛ تَنبيهًا على أنَّ قُريشًا وإنْ أمْلى

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 192.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 292، 293.

تعالى لهم وأمْهَلَهم فإنَّه لا بُدَّ مِن عَذابِهم، فلا يَفْرَحوا بتأْخيرِ العَذابِ عنهم[1].

دلالة لفظة (كأيِّن):

الكثرة هو المعنى الظّاهر، وقصد السّياق هو المعنى الباطن

(كَأَيِّنْ) هُنا في ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ كأختها السّابقة ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ [الحجّ: 45] بمعنى (كم) الخبريَّة الدّالَّة على الكثرة؛ أيْ: (كم من قرية أهلكناها[2]، وكم من قرية أخَّرْتُ إهلاكها مع استمرارها على ظُلمها فاغترَّتْ بذلك التَّأخير، ثم أنزلتُ بها بأسي وشديد انتقامي، وحسابها بعدُ مُدّخَرٌ ليوم الحساب حين لا ينفع مالٌ ولا بنون إلّا مَنْ أتى الله بقلبٍ سليمٍ)، ولا يخفى ما في هذا من شديد الوعيد وعظيم التَّهديد مع تأكيد ما ذكره من عدم إخلاف الوعد وإنْ طال الأمد[3].

سِرُّ تكرار لفظة (كأين) هُنا بعد ذِكْرِها قريبًا:

التَّنويعُ في ذِكْرِ المُمهَلين بعد ذِكْرِ المُهْلَكين من غير إمهال

تكرَّر قوله: (كَأَيِّنْ) في هذا الموضع بعد ذِكْرِه في موضعٍ قريبٍ؛ لأنَّه جَلَبَ معنًى آخر؛ حيث ذكر أوَّلًا القرى المُهلكة دون إملاء، ثُمَّ ثنّى ﷺ بالمُمْهَلَةِ؛ لِئَلّا يفرح هؤلاء بتأخير العذاب عنهم[4]، وفي التّكرار للكثرة رسالة عدم اطمئنان للقوم المُمْهَلين حتى يفيقوا من غفلتهم ويعودوا إلى رُشدِهم.

تنكير لفظ ﴿قَرْيَةٍ﴾:

التَّكثير المُستلزم للتَّهديد والتَّخويف

نُكِّرت ﴿قَرْيَةٍ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ للتَّكثير في عدد القرى الهالكة؛ أيْ: ما أكثر القرى الظّالمة التي أمهلها الله[5]؛ ومن المعلوم أنَّ (كأين) لا تُستعمل في القرآن الكريم إلّا مقترنة بـ (من)

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 523، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 292، 293.
(2) الرُّمّانيّ، معاني الحروف، ص: 6، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 5001.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 125.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 127، والثَّعالبيّ، الجواهر الحِسان: 4/ 129.
(5) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1056.

الدّاخلة على النَّكرة لإفادة العموم والكثرة كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: 146] وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: 105] وغيرهما، فتلزم (من الاستغراقية) مع النَّكرة؛ لتتضافر هذه المكونات في رسم صورة للكثرة الكاثرة وصولًا إلى تحقيق التَّهديد الملائم للتّكذيب.

سِرُّ حذف المُضاف إلى القرية:

حُذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه من قولِه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾؛ والتّقدير: (وكم من أهْلِ قَريةٍ)، وأرجَعَ الضَّمائرَ للقرية في: ﴿لَهَا﴾ - ﴿وَهِيَ﴾ - ﴿ظَالِمَةٌ﴾ - ﴿أَخَذْتُهَا﴾ والأحكامَ إليها؛ مُبالَغةً في التَّعميمِ والتَّهويلِ[1]، لينظر الغافل في شمول الإهلاك والتَّدمير كل المكان فيرعوي عن ضلالاته ويفيق من جهالاته وأوهامه، فعَلَّقَ الأخذ بالقرية والمُراد أهلها، وهو مُجاز مُرسل علاقتُه المحليَّة؛ وهو من إطلاق المحلِّ، وإرادة الحالِّ، لأنَّ نِسبته إلى المحلِّ يقتضي شمول جميع ما فيه بحسب ظاهر الحال أو يقتضي شمول الهلاك للحالِّ والمحلِّ جميعًا[2].

ملاحظة غير العاقل دليلُ كمال غفلةِ العاقلِ

دلالة ذِكْر الإملاء قبل الأخذ:

تَقَدَّم ذِكْرُ الإملاء على الأخذ؛ لأنَّ القصد من هذه الآية التَّذكير بأنَّ تأخير الوعيد لا يقتضي إبطاله؛ فناسب تقدُّم ذِكْر الإمهال والإملاء ثُمَّ الأخذ بعده من حيث أنَّه دخولٌ في القبضة بعد بُعدِه عنها[3]، ولأنَّ الآية خطابٌ لِمَن قضى الله بأن يُمهلهم من أجل نبيِّهم ﷺ ثم إذا شاء أخَذَهُم.

إمهالُ الظالمين قطعٌ لحُجَّة المهلَكين

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 74، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 112، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 67.

(2) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 86.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 292.

كما أفاد تقديمُ الإمهال على الإهلاك أنَّ اللّه حليمٌ صبورٌ على الظّالمين، لا يُعاجلُهم العقوبةَ حتى يَمنحَهم الوقتَ الكافي للتَّفكُّر والاعتبار والنَّظر مع ظلمهم وبَغْيِهم؛ وبذلك يقطعُ عليهم الحُجَّةَ والجدلَ بالإملاء قبل الإهلاك.

دلالةُ الجُملةِ الحاليَّة:

جُملةُ: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ حاليَّةٌ؛ أيْ: أمليتُ لها وهي في حال ظلم قد أحاط بأعمالها من شركٍ وعُتوٍّ، وكِبْرٍ وفسادٍ في الأرض، فأمهلها سبحانه مع بقاء هذه الحال، ثُمَّ جاءها العذابُ من حيث لا يتوقَّعون بَياتًا أو هُم قائلون، أوْ ضُحًى وهم يلعبون، وهي مُفيدةٌ لكَمالِ حِلْمِه تعالى، ومُشعِرةٌ بطَريقِ التَّعريضِ بظُلْمِ المُستعجِلينَ[1]، وفي تقييد الإملاء بجملة الحال: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾: تعظيمٌ لذلك الإملاء، وفي إعادة الضَّمير ﴿وَهِيَ﴾ للقرية إشارةٌ إلى شدَّة الظُّلم المُمارَس من هؤلاء الظّالمين حتى كأنَّ القرية تحولت بما فيها إلى ظلمٍ مُستمرٍّ دائمٍ.

سبحان مَن يُرتِّب على ظُلْم العباد إحسانَه إليهم

سِرُّ التَّعبير عن الظُّلم بصيغة اسم الفاعل:

وردت صيغة اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ للدّلالة على استمرارها وإدمانها لفعل الظُّلم من الكُفر والمعاصي حتى اغترَّت بذلك التَّأخير، ثُمَّ أنزلتُ بها بأسي وشديدَ انتقامي[2]، وكانت الجملة الحالية اسميةً للدّلالة على ثبوت صفة الظّلم فيها حتى صارت صفة مُنغرسةً لا تفارق القرية وأهلها.

استمرارُ الظُّلم وإدمانهم فِعله سببُ الإهلاك

إيثار العطف بحرف التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب والنَّكال بعد طول الإملاء والإمهال[3]، فـ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي ليتناسب التَّراخي مع الإمهال الذي

طولُ الإمهال قد يُغري الغافلَ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 112، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 5001.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 125، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 18/ 369.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 112.

أملى اللّهُ تعالى به لهم[1]، وفي ذلك التّراخي رسالةُ تهديدٍ لكلِّ الظّالمين الذين يمدُّهم الله بطغيانهم يعمهون أنَّ العقوباتِ وإنْ تأخّرتْ فهي كائنةٌ لا محالةَ بهم، وأنَّ طول المُدَّة لا يعني أنَّهم يُفلِتون من الجزاء العادل والعذاب المقيم.

دلالة إسناد الأخذ إلى ضمير المتُكلِّم:

كمال التَّهديد وشدّة المَحْقِ سُنّة اللهِ تعالى مع الظّالمين

في قوله تعالى: ﴿أَخَذْتُهَا﴾ أُسند الأخذ إليه سُبحانه، وفيه تهديدٌ شديد لأنَّ الآخذ لهم هو القويُّ الجبّار الذي لا يُفلِت عن قُدرته شيءٌ[2]، فتأتي هذه الجملة الكريمة مؤكِّدةً لما جاء في الآية التى قبلها؛ فالله ﷻ يُمهل الظّالمين ويُملي لهم ولا يهملهم، وكثيرٌ من القرى أمهلهم الله أمدًا طويلًا بالنّسبة لهم عَلَّهم يثوبون إلى رشدهم أو تتفتح بصائرهم، حتى إذا أمِنوا مكرَ الله واستخفّوا بعذابه؛ أخذهم الله أخذَ عزيزٍ مُقتدر[3]، وليتناسبَ مع ﴿أَمْلَيْتُ﴾؛ فيكون المُملي نفسَ الآخذ، وأنّه تعالى يفعلُ في مملكته ما يشاء، كما تعلّقَ فعلُ الأخذِ بضمير (القرية) للدّلالة على شدَّة الأخذ للظّالمين الذين لم يُستثنَ منهم أحدٌ حتى المكان الذي حلّوا فيه.

سِرُّ اختيار لفظ الأخذ دون الإهلاك وغيره:

القوّة والشِّدَّة في الانتقام والتّعذيب

عبَّر النَّظم الكريم بالأخذ دون الإهلاك، وأخْذُ الشَّيء يتناسب مع قوَّة الآخذ وقُدرته وشدَّة الانتقام بحسب المُنتقِم، فإذا كان الآخذ هو الله ﷻ فكيف سيكون أخْذه؟ فهذا اللَّفظ صريحٌ في أنَّ المُراد هو الأخذ العاجل الشَّديد بعد الإملاء المديد[4]، وفي النَّظْم مجازٌ بعلاقة السَّببيَّة إذ يلزم من أخذ الشَّيء محوه من المكان الدّالّ على عظيم الإهلاك حتى لم يبق منهم أثرٌ في المكان، وإنّما ذكر الأخذ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 5001.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 5001.
(3) عبد الله شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 17/ 3397.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 112، والشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 16/ 9867.

لتلاؤمه وانسجامه مع الإملاء إذْ بينهما ضِدّيَّة؛ فالإملاء والإمهال منحُ المقابل حريّةَ الحركة والبقاء، والأخذُ والتّناول له تقييد حركته بالإهلاك والمحو والإزالة من المكان.

دلالةُ العطف بالواو بعد ذِكْر الإمهال والأخذ:

بقدر الإحسان يكون الغضب

في مجيء قوله تعالى: ﴿وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ بعد ذِكْر الإمهال والأخذ - معطوفًا على قوله ﴿أَخَذۡتُهَا﴾ - إشارةٌ إلى أنَّهم إذا لم يُؤخَذوا بظلمهم في هذه الدُّنيا فإنَّهم صائرون إلى الله، وسيلقون جزاء الظّالمين يوم القيامة؛ فلا مفرّ لهم ولا مناص من الرّجوع إليه للحساب والعقاب، فإنْ هم أُمهلوا اليوم فليس معنى ذلك أنَّهم نجَوا من العذاب الموعود؛ بل إنَّ في غدٍ عذابًا فوق العذاب وبلاء فوق البلاء، قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ [القلم: 33][1]؛ فالإمهال فضلٌ من الله تعالى، والإهمال لا يكون منه؛ فإنَّه يُمهل ولا يُهمل ويدع الظّالم في ظلمه ويمدّ له الحبل ويُطيل به المَهَلة، فيتوهَّم أنَّه يُفلت من قبضة التَّقدير حتَّى يأخذَه القويُّ القدير[2].

مـدّةُ الإمهـالِ تـطـول حتى تستغرقَ حياةَ المُمْهَل

وفي مجيء جملة ﴿وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ من بعد الإملاء والأخذ عظيمُ ترغيبٍ وشديدُ ترهيبٍ؛ فأمّا التّرغيبُ فلأنّ مدّة الإمهال تطول حتى تستغرقَ حياةَ الواحد منهم؛ وأمّا التّرهيبُ فلأنّ مَن لم يرجِعْ في تلك المدّة الطّويلة كان عقابُه أعظمَ وجزاؤه أشدّ وأفخمَ.

نكتة تقديم ﴿وَإِلَيَّ﴾ على ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾:

مَن عرَف مآلات الأمور أحسن في بواديها

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيَّ﴾؛ أيْ: إلى حُكمي ومُجازاتي مرجعُ الكُلِّ، لا إلى أحدٍ غيري، لا استقلالاً ولا شركةً، فأفْعَلُ بهم ما أفعل ممّا يليق بأعمالهم[3]، وتَقديمُ المَجرورِ ﴿وَإِلَيَّ﴾ للحَصرِ الحقيقيِّ؛ أيْ: لا يَصيرُ

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1056.
(2) حقّي، روح البيان: 6/ 47.
(3) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 18/ 369.

النّاسُ إلّا إلى اللهِ، وهو يَقْتضي أنَّ المصيرَ إليه كائنٌ لا مَحالةَ؛ فهو كِنايةٌ عن عدَمِ الإفلاتِ[1]، ووراءَ ذلك من المعنى تفخيمُ ما سيلقون من عقاب؛ لتمكُّنه ﷺ منهم تمام التَّمكُّن؛ إذ هم راجعونَ إليه هو وحدَه لا محالة؛ فله كمالُ اقتدارٍ عليهم.

بلاغةُ المجاز في التَّعبير بالمصدر الميميّ ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾:

الـدَّلالـةُ على حصول الرُّجوع ومُكنَتِهِ

﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ مصدرٌ ميميٌّ لـ(صار) بمعنى: رجع؛ وهو رُجوع مجازيٌّ بطريق المجاز المُرسل بمعنى الحصول في المُكنَة[2]، فالرجوعُ إلى الله تعالى لا يكونُ بالذَّهاب إلى مكانٍ لتنزُّهه عن الحصول المكانيِّ؛ وإنّما بالحصول في المكان والاجتماع في مكان الحساب، وإنَّما عبّر عن الحصول في مكان الحساب بالرّجوع إلى الله تعالى؛ لأنّ ذلك المكان هو الذي أعدّه الله تعالى ليُحاسبَهم على أعمالهم فيه؛ فكأنّه رجوعٌ إليه ﷻ.

دلالةُ التَّعريف في لفظة ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾:

بيان شمول المآل للخلق أجمعين

يدلُّ التَّعْريفُ في المصدر ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ على الاسْتِغْراقِ أيضًا لنيابته عن (الناس)؛ أيْ: مَصيرُ النّاسِ كُلِّهِمْ، فهي لفظةٌ عامَّةٌ شاملةٌ لمآلِ العبادِ جميعًا وإن كان الوعيد في الآية لأهل الكفر.

سِرُّ الاعتراض التَّذيليّ:

من كمال الإحسان التّذكيرُ بأنّ إليه مصيرهم ولإثارة مخاوفهم

قولُه تعالى: ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لِما قبْلَه، ومُصرِّحٌ بما أفادهُ ذلك بطَريقِ التَّعريضِ من أنَّ مآلَ أمْرِ المُستعجلينَ أيضًا ما ذُكِرَ من الأخْذِ الوَبيلِ[3]؛ فهي جملةٌ تذييليَّة ذُكرت لتقرير ما قبلها؛ والمعنى: (وكم من قريةٍ أخّرتُ إهلاكها مع استمرارها على ظُلمها، فاغترَّت بذلك التَّأخير، ثم أنزلتُ بها بأسي وشديد انتقامي وحسابها بَعْدُ مدَّخرٌ ليوم الحساب، يوم لا ينفع مالٌ ولا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 293.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 293.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 112، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 293.

بنون إلّا مَن أتى اللّه بقلب سليم)، ولا يخفى ما في هذا من شديد الوعيد وعظيم التَّهديد[1]، ورسالة إحسان للأحياء منهم أن ينتهزوا الفرصة بالرجوع والإنابة والاستغفار والتوبة؛ لأنّ مَن علم أنَّ مصيره إلى اللّه ورجوعَه إليه لا محالة فكَّر بالجزاء على الظُّلم فارتدع وبالحساب للظالمين فانزجر.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المصير والمآب والمرجِع:

المصير: يدلُّ على التَّحول إلى غاية أو مَجْمَع؛ ليكون المآل والمُنتهى؛ ومنه قوله تعالى: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: 285]، وقد ورد في القرآن الكريم ثمانيَ وعشرين مرَّةً، وورد مرّةً واحدةً بصيغة الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشّورى: 53]، والمآب: رجوع الشّيء إلى مُسْتَقَرِّهِ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: 14]، وقوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾ [النَّبأ: 21-22]، والمرجع: مصدرٌ ميميٌّ أو اسم زمانٍ، والرُّجوع هو العود إلى ما كان منه البدء، والرَّجْع: تحوّلٌ عن الاتجاه أو الحال إلى عكسه - كما يتردَّد الماء في الغدير؛ لأنَّه مُحتبس فيه لا يَسترسل بعيدًا، وكلُّ ما في القرآن من (تُرْجع، تُرْجَعون، يُرْجع، راجعون، مرجعكم، مرجعهم)؛ فهي إلى اللّه ﷻ[2].

المصير المآل، والمآب الرُّجوع إلى المستقرّ، والرُّجوع تحوّلٌ إلى العكس

(1) الهرريّ، تفسير حدائق الرُّوح والرَّيحان: 18/ 369.
(2) مُحمَّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (صير)، (أوب)، (رجع).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»